دراسة آراء سيبويه الصوتية فى ضوء البحث اللغوى الحديث

مهين حاجی‌زاده*



الملخص

علم الأصوات علم جديد قديم؛ جديد لأنه واحد من فروع علم اللسانيات الذى لايعدو تأسيسه مطلع هذا القرن، على يد اللغوى السويسرى فردينان دوسوسور، وقديم لأنه واحد من العلوم التى تقوم عيها كل لغة. ولمّا كان الأمر كذلک، فقد عنى أصحاب كل لغة بأصواتها منذ أقدم العصور، والعلماء المسلمون أيضا تنبهوا قديما إلى قيمة الصوتيات الكبيرة فى الدرس اللغوى، وبينهم علماء لغويون أفذاذ، لايقلون أهمية عما يعرف الغرب، وغيره اليوم من علماء، أمثال سوسير، وتشومسكى، وياكوبسون، بل قديفوقون هؤلاء فى ميادين مختلفة، من البحث اللغوى العلمى، وفى طليعتهم سيبويه الذى يعد الرائد الحقيقى فى الدراسات الصوتية العربية، وأعماله فى هذا المجال هى الأساس لكل الأعمال الصوتية من بعده.

يحاول هذا المقال إلقاء شىء من الضوء، على تفكير سيبويه الصوتى، وعلى منهجه فى دراسة أصوات اللغة العربية، وطريق تحليلها، وإبراز الجوانب المشرقة فى دراساته، بالنظر إلى أهم النقاط التى ترسم إطار هذا التفكير، وتبيّن حدوده، وأبعاده من وجهة النظر الحديثة، بقصد بيان موقع دراساته الصوتية من الدراسات اللغويين الأجانب المحدثين عن طريق الربط، أو المقارنة.

الكلمات‌الدليلية: التراث الصوتى العربى، علم الأصوات، اللسانيات، سيبويه.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة تربيت معلم آذربايجان.

تاريخ الوصول: ۱۳۸۸/۹/۱۵هـ. ش   تاريخ القبول: ۱۳۸۸/۱۱/۱۸هـ. ش

المقدمة

لعل من أبرز التطورات التی شهدها العلم فی مطلع القرن العشرین، ظهور علم جدید، جنح إلی دراسة اللغة، دراسة علمیة، ونظر إلیها علی أنها ظاهرة طبیعیة، یمکن أن تخضع لما تخضع له الظواهر الطبیعیة الأخری، من اختبار علمی ینتهی إلی قوانین ثابتة، ونعنی به علم اللسانیات؛ لکن هذا العلم لم یظهر فی میدان العلوم الإنسانیة، لیحتل مکان الصدارة دونما مقدمات. فلقد کانت له جذوره فی أعماق الماضی، فنجد بدایته عند الهنود، والیونان، وعلماء الإسلام، (عرباً أو غیر عرب)، وإذا کان من مؤرخی هذا العلم، من غفل أو تغافل عن دور العلماء المسلمین، فی بناء صرح علم اللسانیات الحدیث؛ وإذا وجد الیوم من یزعم، ویردد أن هذا العلم ولید الحضارة الغربیة، فی أحضانها نشأ، وفی أرضها ترعرع، فإن هذا أو ذاک لاینفی حقیقة حدث تؤیده النصوص الثابتة، قائلة: إن لعلماء الإسلام فضل السبق فی بحث جوانب علم اللسانیات، إذ وصلوا فیها إلی نتائج، یحق لهم أن یفاخروا بها الأمم.

إنّ کثیراً من العلماء، والستشرقین الأجانب، بل من الباحثین العرب المحدثین، یعتقدون أن الصوتیات العربیة، متأثرة ببحوث الأمم السابقة علی العرب کالهند، والیونان، وعنهم نقلوها. (ضیف، ١٩٦٨م: ٣٢) ولعل ما ساعد علی هذا القول أمران اثنان: هما إهمال المسلمین الدراسات الصوتیة فی عصر الدول المتتابعة، وکون المستشرقین أول من تحدثوا عنها فی عصر النهضة.

وممن تولی الرد علی الآخذین بهذا الرأی کمال بشر، وهو أحد العلماء المختصین، فقال: «فی رأینا أن دراسة العرب لأصوات لغتهم، إنما هی دراسة أصیلة، لیست منقولة فی منهجها أو طریق التفکیر فیها عن غیرهم من الأمم، والقول بأنها ترجع إلی أعمال الهنود، أو الیونان فی دراساتهم الصوتیة، قول تعوزه الأدلة العلمیة، التی تستطیع أن تؤکد هذا الزعم أو تنفیه، علی أن النظر الدقیق فی جملة ما طلع علینا به علماء العربیة فی مجال الأصوات اللغویة، یحملنا علی الجزم بأن هؤلاء العلماء کانوا یصدرون عن عقلیتهم الخاصة، وثقافتهم العربیة.» (بشر، ١٩٧٥م: ٤٨)

ثم أتى بدليل على صدق قوله يتصل بمنهجهم فى الدراسة الصوتية، فرأى أن هذه الدراسة تقوم على أساس نطقى، كما عند الغربيين، يعنى بالخواص النطقية للأصوات، ووظائف جهاز النطق، وحركات أعضائه عند إخراج الأصوات، وهذا مخالف لما سلكه اليونان، إذ اعتمد هؤلاء أولا، على الخواص السمعية للأصوات، وإذا كان منهج العرب يشابه منهج الهنود عامة، فإن فيه اختلافات كثيرة فى التفصيلات، وهو منهج وصفى، يعنى بدراسة الظاهرة اللغوية فى معزل عن تطوراتها التاريخية، ويخلو من الافتراضات العقلية، والمتاهات الفلسفية، ويقوم على أساس من هم أسس البحث الصوتى اليوم، وهو الملاحظة الذاتية. (المصدر نفسه: ۴۹)

رأى كمال بشر أيضا أن ما قام به العرب له سبق تاريخى وعلمى، وإذا كان الهنود قد سبقهم تاريخيا فى الدرس الصوتى، فإن هذا لاينفى أن يكون العرب روادا فيه، فأبجديتهم - كما يقول - «فيها مبادئ صوتية رائعة، ويتحقق فيها أحدث الآراء فى الدرس الصوتى، إذ أن فيها رمزاً واحداً لكل واحدة صوتية، ثم إن لهم سبقاً فى إدراك معنى الجهاز النطقى، ومعرفة وظيفته، وطبيعته، ولهم السبق أيضا فى ترتيب الأصوات حسب المخارج بدقة، والعناية بتصنيفها، وتقسيمها إلى مجموعات متداخلة. (المصدر نفسه: ۵۰-۵۱)

فحقيقة الأمر، إذن أن دراسات العرب الصوتية تتسم بالأصالة، وفضل السبق، وقد عرف شيئاً من هذا غير واحد من العلماء المنصفين، والباحثين المدققين الأجانب، كالمستشرق برجشترأسر، وفيرث الذى يقرر أن الدراسات الصوتية نشأت فى أحضان لغتين مقدستين هما العربية، والسنسكريتية. (مختار عمر، ۱۹۸۸م: ۱۱۴) وقد اعترف جورج مونين صراحة، بجودة الدرس الصوتى عند العرب فقال: «منذ القرن الثامن الميلادى، كان علماء اللغة فى البصرة يسعون إلى وصف لغتهم وصفا صوتيا، وسواء أوجدوا تلقائياً علماً للأصوات جديراً بأن يذكرنا بالعلامة بانينى، أم أنهم اقتبسوا هذا العلم عنه، فتلك مشكلة على حده، ولكن لابدلنا - بادىء ذى بدء- أن نعترف بوجود هذا العلم فى الأصوات وأنه علم فذ ممتاز.» (مونين، ۱۹۷۲م، ج۱: ۲۰۶)

کل هذه الاعترافات أوثق دلیل علی أن الدراسات الصوتیة العربیة نشأت نشأه أصیلة، وتطورت تطورا ذاتیا، استجابة لحاجة الناطقین بالعربیة والدراسین قواعدها، وقطعت فی ذلک شوطا بعیدا، وجاءت الدراسات الصوتیة العربیة الحدیثة مؤسّسة علیه، ومکملة له.

وهذه الدراسة محاولة لبیان بعض صنیع علماء المسلمین، وعلی رأسهم سیبویه فی جانب تولیه اللسانیات الحدیثة عنایة کبیرة حین تدرس لغة ما، هوالجانب الصوتی، فلقد بات من المعروف أن اللغة تدرس الیوم من خمسه جوانب. إذ لیس بمقدور أحد أن یدرس اللغة من جمیع جوانبها دفعة واحدة، وإنما یدرس کل جانب علی حدة، لیسهل له رویة أبعاده، وتناول جزئیاته. وهذه الجوانب المختلفة للدراسة اللغویة تسمی <مستویات الدرس اللغوی> فی مصطلح علماء اللغة المحدثین، ومناهج بحثهم.

وعلی هذا فإن دراسة اللغة، أی لغة تنقسم إلی مستویات أهمها هی:

١. مستوی الأصوات، ویدرس أصوات اللغة من جوانب مختلفة، فإن کان یدرسها من دون النظر إلی وظائفها، بل یحلل الأصوات الکلامیة، ویصنفها مهتماً بکیفیة إنتاجها، وانتقالها، واستقبالها، فإن علماء اللغة یطلقون علیه اسم <علم الأصوات العام> (phonetics). وإن کان یدرس الأصوات من حیث وظیفتها، فإنهم یطلقون علیه اسم <علم الأصوات الوظیفی> (phonology) وإن کان یهتم بدراسة التغیرات التاریخیة فی الأصوات، فإنهم یطلقون علیه اسم <علم الأصوات التاریخی> (diachronic phonetics). (بای، ١٩٧٣م: ۴٣؛ ردینی، ٢٠٠٢م: ٣١؛ قدوری الحمد، ٢٠٠٢م: ٢۴)

٢. مستوی الصرف (morphology)، أو مستوی دراسة الصیغ اللغویة، وبخاصة تلک التغیرات التی تعتری صیغ الکلمات، فتحدث معنی جدیداً.

٣. مستوی النحو (syntax) الذی یختص بتنظیم الکلمات فی جمل أو مجموعات کلامیة، ودراسة ترکیب الجملة.

۴. مستوی الدلالة (semantics) الذی یختص بدراسة معانی الکلمات.

۵. مستوی المعجم (lexicography) ویستمد وجوده من علم دراسة تاریخ الکلمات،

وعلم الدلالة. يضاف إلى ذلك اهتمامه ببيان كيفية نطق الكلمة، ومكان تغيرها، وطريقة هجائها، وكيفية استعمالها فى لغة العصر الحديث. (ردينى، ٢٠٠٢م: ٣٢)

والجانب الصوتى هو الأول والأهم، وعليه العمدة فى دراسة الجوانب الأربعة الأخرى، ويدور حوله معظم الدراسات اللسانية المعاصرة. ونحن هنا لسنا بصدد بيان أهميتها، إلا أن الذى يهمنا فى هذا المقام، هو إن العلماء الإسلامية، تنبهوا قديماً إلى قيمة الصوتيات الكبيرة فى الدرس اللغوى، وكان لهذا التنبيه مظاهر متعددة، سنذكر أبرزها ـ كما يعنينا أن نقول: إن بين العرب، والعلماء الإسلامية، علماء لغويين أفذاذاً، لايقلون فى الأهمية عما يعرف الغرب، وغيره اليوم، بل قد يفوقون هؤلاء فى ميادين مختلفة، من البحث اللغوى العلمى، ولعل فى طليعة من نفاخر بهم، العالم سيبويه الذى من أجله صنعنا هذه الدراسة. والذى يهمنا الآن أن نتحدث عما كتبه فى الصوتيات خاصة، بقصد بيان موقعه من دراسات اللغويين الأجانب المحدثين خاصة، فى سبيل إيضاح ما ذكرنا من فضل للعلماء الإسلامية.



نشأة الدراسات الصوتية العربية وتطورها

يرتبط ظهور الدرس الصوتى العربى بنشأة الدراسات اللغوية العربية، التى يمكن أن يورّخ لبدئها بنزول القرآن الكريم وتدوينه، ثم تلاوته، وتعليم قراءته، وإذا كانت الملاحظات اللغوية الأولى قد صدرت من عدد من أولى الأمر والعلماء من الصحابة، والتابعين بصورة شفهية، فإن الجهد اللغوى المنظم بدأ بالأوراق الأربع، التى ذكر ابن النديم أنه شاهدها بخط يحيى بن يعمر، عن أبى الأسود الدوئلى، فيها كلام عن الفاعل والمفعول. ثم اتسعت حركة جمع اللغة واستخلاص قواعدها، حتى انتهى ذلك الجهد، بظهور الكتب الجامعة التى تضم ألفاظ اللغة، على نحو ما نجد فى المعجمات كالعين للخليل، أوتعرض قواعد اللغة على نحو ما نجد فى كتاب سيبويه، وغيره ومن كتب النحويين واللغويين. (قدورى الحمد، ٢٠٠٢م: ٦)

وكانت بواكير الدرس الصوتى العربى قد جاءت مختلطة بالدراسات اللغوية، والنحوية

الأولی، وکان لها قیمة تاریخیة وعلمیة. أما اتجاهات الدرس الصوتی فقد تعددت، بتعدد مجالات التوظیف فی العلوم العربیة والإسلامیة، وأول هذه الاتجاهات وأصلها، الاتجاه اللغوی الذی ابتدأه أصحاب المعاجم، فهم أقدم من تحدث عن الصوتیات من العرب، فنجد فی مقدمة معجم العین، ملاحظات عن أصوات العربیة التی تنم عن حسّ لغوی دقیق، فلقد أحس الخلیل بن أحمد الفراهیدی (ت ۱۷۵ هـ) کثیرا من جوانب المشکلة الصوتیة، إذ تحدث عن مخارج الحروف، وصفاتها من همس، وجهر، وشدة، ورخاوة، ونحوها، وعما یحدث للصوت فی بنیة الکلمة من تغییر، یفضی إلی القلب، أو الحذف، أو الإعلال، أو الإبدال، أو الإدغام، وذکر عدداً من القوانین الصوتیة، وعدداً من المسائل الصوتیة، واللهجیة، والقراءات. (أنظر: الفراهیدی، ۱۹۸۸م، ج۱: ۴۷-۶۱) ولعل أهم ما یستوقف النظر فی ترتیب الحروف حسب مخارجها، وقد رتبها علی النحو التالی:

ع ح هـ خ غ – ق ک – ج ش ض – ص س ز – ط د ت – ظ ذ ث – ل ن – ف ب م – وا ی ء. (الفراهیدی، ۱۹۸۸م، ج۱: ۴۸)



ونصل إلی النحاة، لنری أنهم عنوا بالصوتیات بوصفها مدخلاً لدراسة الصرف من إدغام، وإعلال، وإبدال، ونحو ذلک. ولعل خیر من یمثل النحاة فی حدیثهم عن الأصوات أصدق تمثیل، سیبویه صاحب الکتاب المشهور، الذی یعده کثیرون المصدر الأول لعلم الأصوات العربی. ویستأثر الجزء الرابع من الکتاب بأجلّ هذه المباحث، وهو باب الإدغام الذی استهله سیبویه، بذکر عدد الحروف العربیة ومخارجها، ومهموسها، ومجهورها، وأصولها، وفروعها، وما إلی ذلک مما یدخل فی تکوین النظام الصوتی العربی، وهو الموضوع الذی سنتطرق فی هذا المقال إلیها.

وعلی نهج سیبویه تقریباً، سار الزجاجی (فی المائة الرابعة)، والزمخشری (فی المائة السادسة)، الذی عقد فی کتابه <المفصل> باباً خاصاً أسماه <المشترک> أی ما یشترک فیه الاسم، والفعل، والحرف. کما نجد ابن یعیش (فی القرن السابع الهجری) فی شرحه <المفصل> وابن الحاجب (فی القرن السابع) فی کتابه <الشافیة> ورضی الدین استرآبادی (فی القرن السابع) فی شرح<الشافیة>، ینهجون جمیعاً نهج سیبویه، ویعتبرون

الأبحاث الصوتيه جزءاً من أجزاء النحو. (أنيس، ١٩٧٩م: ١٠٥، مختار عمر، ١٩٨٨م: ١٠٦)

على أن أول من أفرد المباحث الصوتيه بمؤلف مستقل، ونظر إليها على أنها علم قائم بذاته ابن جنى (٣٩٢ هـ) فى كتابه <سر صناعه الإعراب> الذى بسط فيه الكلام على حروف العربيه: مخارجها، وصفاتها، وأحوالها وما يعرض لها من تغيير، يؤدى إلى الإعلان، أو الابدال، أو الإدغام، أو النقل، أو الحذف، والفرق بين الحرف، والحركة، والحروف الفروع المستحسنة، والمستقبحة، ومزج الحروف وتنافرها وما إلى ذلک. (ضيف، ١٩٦٨م: ٦٣؛ مختار عمر، ١٩٨٨م: ١٠٠-١٠١)

ولاتقتصر جهود ابن جنى الصوتية على ما فى سر الصناعة، وإنما تتعداه إلى كتبه الأخرى، وفى مقدمتها الخصائص، الذى تضمن مادة صوتية غنية، جاء بعضها منثوراً فى تضاعيف الكتاب، وأفرد بعضها الآخر فى أبواب مستقلة، مثل باب فى كمية الحركات، وباب فى مطل الحركات، وباب فى مطل الحروف ... إلخ. (أنظر: ابن جنى، لاتا، ج٣: ١٢٠-١٣٣)



وثانى هذه الاتجاهات مثّله دارسو الإعجاز، والبلاغة، والنقد ممن عرضوا لفصاحة الكلمة، بحسب المخارج، وائتلاف الحروف، وبيان حسن التأليف، أو قبحه. نذكر من هؤلاء الرمانى (ت ٣٨٦ هـ)، وابن سنان الخفاجى (ت ٤٢٦ هـ)، وبهاء الدين السبكى (ت ٧٧٣ هـ)، وغيرهم. (قدور، ٢٠٠١م: ٦٧)

أما ثالث هذه الاتجاهات، وأهمها، وأكثرها، مؤلفات فهو علم التجويد الذى ظهر فى القرن الرابع نتيجة تضافر القراءات من جهة، والدرس الصوتى من جهة أخرى، فى الحقيقة، يظهر استقلال هذا العلم بصورة أكثر جلاء لدى علماء التجويد، الذين خصصوا للمباحث الصوتية المتعلقة بقراءة القرآن الكريم، كتباً مستقلة عن كتب القراءات، وأطلقوا عليها اسم التجويد، وكان بدء ذلک فى القرن الرابع الهجرى على يد أبى مزاحم الخاقانى الذى نظم قصيدة فى حسن أداء القرآن، قال عنها ابن الجزرى: إنها أول مصنف فى علم التجويد. وتبين الكتب المؤلفة فى علم التجويد فى القرن الخامس التى وصلت إلينا، اكتمال صورة هذا العلم، وشمول مباحثه، دراسة أصوات اللغة من جميع الوجوه. (قدورى الحمد، ٢٠٠٢م: ٨)

وظلت المباحث الصوتية تحتل مكانة بارزة فی كتب النحو، وكتب الصرف إلی عصور متأخرة، أما فی كتب علم التجويد، فإن الاهتمام بها قد استمر علی نحو واضح، لاسيما فی شروح المقدمة الجزرية بأبی الخير محمد بن الجزری (٨٣٥ هـ)، وعلی يد عدد من العلماء المتأخرين الذين عنوا بتعليم قراءة القرآن الكريم، مثل محمد المرعشی الملقب بساچقلی زاده (ت ٧٣٧ هـ) الذی ألف كتابه <جهد المقل>، وشرحه بكتابه <بيان جهد المقل> فی علم التجويد، وقد تضمن هذا الكتاب، وشرحه دراسة عميقة، وواسعة لأصوات العربية، تلتقی مع كثير من الحقائق الصوتية التی أثبتتها الدراسات المعاصرة. (المصدر نفسه: ٨)

ويأتی الاتجاه الرابع، وهو اتجاه علمی، ثمرة للترجمة المباشرة عن الطب اليونانی، وقد مثّل هذا ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) فی رسالته <رسالة أسباب حدوث الحروف>. وقد عرض فيها جوانب فيزيائية تتصل بالصوت، وجوانب تشريحية تتعلق بأعضاء النطق الرئيسية، كاللسان، والحنجرة، وجوانب ترتبط بآلية إصدار الأصوات. وفی الرسالة جوانب أخری، فيها موازنات بين الأصوات العربية، وبعض الأصوات فی اللغات الأعجمية التی عرفها ابن سينا. وتأتی الرسالة، مخالفة لتطور الدرس الصوتی فی اتجاهاته الثلاثة السابقة، إذ بدت استجابة لنوع من التعالی بإظهار معرفة جديدة لاقبل اللغويين، ومن تقيلهم من علماء التجويد، والبلاغة بها. تمتاز الرسالة بتطور فی الأسلوب العلمی من خلال توليد المصطلحات، وضبط التعبير، والابتعاد عن خصائص اللغة الأدبية. (قدور، ٢٠٠١م: ٦٨)



وهكذا انتقلت البحوث الصوتية علی ما يبدو من الميدان اللغوی الدقيق، إلی ميدان البحث فی مناهج الأداء القرآنی، وظلت تتابع سيرها عبر الزمان فی هذا الميدان، بصورة أو بأخری حتی يومنا هذا. ونشطت دراسة أصوات العربية فی عصرنا علی أيدی المستشرقين أولاً، ثم علی يد الباحثين العرب، بعد ذلک وكانت حصيلة ذلک كله عشرات الكتب، والبحوث التی أغنت علم أصوات العربية.

أصوات العربية فى كتاب سيبويه

تعد الأصوات «اللبنات التى تشكل اللغة، أو المادة الخام، التى تبنى منها الكلمات، والعبارات؛ فما اللغة إلا سلسلة من الأصوات المتتابعة.» (مختار عمر، ١٩٧٦م: ٣٤٧)

وقد تنبه سيبويه إلى أهمية الصوت اللغوى، وأدرک أهمية النظام الصوتى، وكان على وعى تام بأنّ دراسة الأصوات مقدمة، لابدّ منها لدراسة اللغة، لذلک فقد تناول بالوصف الصوت المنطوق، فبين عدده، وحدّد مخرج كل صوت، وما يصحبه من حركات أعضاء النطق، لأن غرض الباحث فى علم الصوت، هو أن يبين ما فى نطق الصوت من حركات عضوية، وفى ضوء هذه الحركات يتم تحديد الصوت المنطوق. (حسان، ١٩٥٨م: ١١٩)

ويعد بيان عدد أصوات اللغة، وتحديد مخارجها، وصفاتها، والتمييز بين طبيعة نطقها داخل بنية الكلام عملاً وصفياً، ويقسم سيبويه الأصوات العربية إلى أصول، وفروع؛ فأصول الأصوات عنده تسعة وعشرون صوتاً، وهى:

ء هـ أ ع ح غ خ ق ک ج ش ى ض ن ل ر ط د ت ز س ص ظ ذ ث ف ب م و.



الحروف الفرعية

ذكر سيبويه أن العرب نطقت حروفاً، هن فروع من الحروف الأصول التسعة والعشرين، وهذه الحروف الفروع «يؤخذ بها، وتستحسن فى قراءة القرآن والأشعار، هى: النون الخفيفه، والهمزه التى بين بين، والألف التى تمال إمالة شديدة، والشين التى كالجيم، والصاد التى تكون كالزاى، وألف التفخيم.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٢)

والأصوات غير مستحسنة، أو مستهجنة عند سيبويه ثمانية، «ولاتستحسن فى قراءة القرآن، ولا الشعر، ولا كثيرة فى لغة من ترتضى عربيته وهى: الكاف التى بين الجيم والكاف، والجيم التى كالكاف، والجيم التى كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التى كالسين، والطاء التى كالتاء، والظاء التى كالثاء، والباء التى كالفاء.» (المصدر نفسه: ٤٣٤)

يظهر من وصف سيبويه لهذه الأصوات، أنه كان على وعى تام، بأن الحرف الواحد

قد يشتمل على أكثر من صوت واحد، يأتى كل صوت منه فى بيئة صوتية خاصة، فالتنوعات الصوتية للحرف الواحد ليست وحدات صوتية (صويتا) مستقلة، كما هى الحال فى (النون الخفيفة) على سبيل المثال، فهى تنوع صوتى للصوتية (النون) التى تشتمل على عدد من الأصوات حتى أنّ بعض أصوات النون كالذى فى (ينْظُر) ينطق بإخراج اللسان كإخراجه فى <الظاء>. (حسن أحمد، ۱۹۹۶م: ۸۹-۹۰) إذن هناك تشابهاً بين بعض أسس نظرية الفونيم[1] المتعلقة باعتبار بعض الاختلافات النطقية، تنوعاً موقعياً لصوت واحد، وبين تقسيم الأصوات إلى أصول وفروع عند سيبويه. وقول سيبويه إن الحروف الفرعية لاتتبين إلا بالمشافهة، يشير إلى إدراك علماء العربية، أن هذه الأصوات تنوع موقعى أو لهجى لأصوات العربية، وإنها لاتؤدى إلى تغيير معانى المفردات، ومن ثم لم يخصص لها فى الكتابة الهجائية رموز مستقلة. (قدورى الحمد، ۲۰۰۲م: ۷۳)

إلا أن استعمال سيبويه لمصطلح (الحروف) بدلاً من (الأصوات)، لايعنى أنه لم يكن يفرق بين اصطلاحى الحرف والصوت، كما يرى البعض إذ أن ما ذكره سيبويه من فرق بين الحروف الأصول والفروع، يدل على معرفة تامة بما يعنيه كل من الحرف والصوت. (حسن أحمد، ۱۹۹۶م: ۹۰)



مخارج الأصوات عند سيبويه

ذكر سيبويه للأصوات العربية ۱۶ مخرجاً، وهذه المخارج مرتبة من الحلق إلى الشفتين، وإذا كان الوصف الصوتى اليوم يبدأ من الشفتين إلى الحلق انطلاقاً ممايكون أسهل فى الرؤية، فإن القدامى جميعاً منذ الخليل، وسيبويه قد اتبعوا هذا الترتيب تماشياً، ولاشك مع اتجاه مجرى النفس إذ يعبر جهاز التصويت.

قال سيبويه: «ولحروف العربية ستة عشر مخرجاً: فللحلق منها ثلاثة:

---

۱. وهى نظرية صوتية حديثة، ومرتبطة بالدرس الصوتى الغربى خاصة. إن نظرية الفونيم - مهما كان تفسيرها - قد انبثقت من ملاحظة كيفيات النطق المختلفة، ووظائف الأصوات المتنوعة، ومن محاولة وضع ألفبائيات اللغات المختلفة. فقد لاحظ العلماء أنه على الرغم من أن الأصوات المستخدمة فى الكلام تعد ذات تنوع غير محدود، فإن المتكلمين، والسامعين يكونون عادة واعين بعدد صغير فقط من الأنماط االصوتية المستقلة. (مختار عمر، ۱۹۷۶م: ١٤٤)

١. فأقصاها مخرجاً: الهمزة، والهاء، والألف.

٢. ومن أوسط الحلق مخرج العين، والحاء.

٣. وأدناها مخرجاً من الفم: الغين، والخاء.

۴. ومن أقصى اللسان، وما فوقه من الحنک الأعلى مخرج القاف.

۵. ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً، ومما يليه من الحنک الأعلى مخرج الكاف.

۶. ومن وسط اللسان بينه، وبين وسط الحنک الأعلى مخرج الجيم، والشين، والياء.

٧. ومن بين أول حافة اللسان، ومايليها من الأضراس مخرج الضاد.

٨. ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين مايليها من الحنک الأعلى وما فوق الضاحک، والناب، والرباعية، والثنية مخرج اللام.

٩. ومن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون.

١٠. ومن مخرج النون غير أنه أدخل فی ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء

١١. وممّا بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء، والدال، والتاء.

١٢. ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزای، والسين، والصاد.

١٣. ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء، والذال، والثاء.

١۴. ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء.

١۵. ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة. (سيبويه، ١٩٩١م، ج۴: ۴٣٣)

ليس من خلاف بين سيبويه، وبين الدارسين اليوم فی تصنيف الأصوات إلّا فی حالات قليلة، يمكن التجاوز عن أكثرها لأن هذا التباين يرجع إلى عدد من الأسباب أهمها:

١. التقارب والتداخل بين مخارج النطق، فليس هناک حدود فاصلة فصلاً تاماً بين بعض هذه المخارج ومن ثم فإنه من الجائز أن تنسب ومجموعة من الأصوات إلى مخرج معين، وينسبها باحث آخر إلى مخرج آخر قريب منه، أو متصل به، ومتداخل

معه. (بشر ١٩٧١م: ١٩؛ بشر، ٢٠٠٠: ١٩١) هذا يفسر لنا الاختلاف فی المخرج (ل ن ر). فسيبويه کان يعدها من ثلاثة مخارج، بينما عدها معظم المحدثين من مخرج واحد.

٢. قد يکون جانب من التباين راجع إلی الخطأ فی تحديد مخرج عدد من الأصوات، فإن الدارسين تتفاوت خبراتم ودقة ملاحظتهم، فربما حدد بعضهم مخرجاً للصوت، وقديکون ذلک التحديد غير صحيح، أو غير دقيق. (بشر، ٢٠٠٠م: ١٩١)

٣. تطور الأصوات: فإن بعض الأصوات قد تغير نطقها، فليس غريباً أن يعدها علماء العربية من مخرج، ويعدها المحدثون من مخرج آخر. ومن ذلک مخرج <الضاد>، فإن سيبويه، وغيره من علماء العربية، والتجويد، يجعلون مخرجه من حافة اللسان لايشارکه غيره فی مخرجه، ويعده أکثر المحدثين من مخرج (ت د ط)، بناء علی طريقة نطقه فی قراءة القرآن فی زماننا. (قدوری الحمد، ٢٠٠٢م: ٨٩)



أما ترتيب سيبويه للمخارج فنلاحظ علی مايأتی:

١. إن سيبويه لم يشر إلی الحنجرة فی تصنيفه هذا، واکتفی بالإشارة إلی ما سمّاه الحلقی، وقسّمه إلی ثلاثة أقسام: أقصاه ومنه <الهمزة>، و<الألف>، و<الهاء> وأوسطه ومنه <العين>، و<الحاء>، وأدناه ومنه <الغين>، و<الخاء> فکأنّ أقصی الحلق عنده يقابل الحنجرة، أو منطقتها فی العرف الحديث، وأوسطه يناظر الحلقی، وهو يمثل المنطقة الواقعة بين الحنجرة، والفم، وأدناه يعنی <أقصی الحنک بالتعبير المعاصر>، علی أنّ قبولنا لهذا التفسير من سيبويه، کان يوجب عليه أن تعدّ <القاف>، حلقية لأنهما (بصورتها الفصيحة اليوم)، من منطقة سابقة علی <أقصی الحد> الذی يقابل أدنی الحلق عنده، وهی بهذا الوصف أعمق فی المخرج من <الغين>، و<الخاء>، ولنا هنا أن نفترض أن سيبويه، لم يعد <القاف> حلقية، أو من أدناه، لأنه کان ينظر إلی <الجاف> (G) لا إلی القاف (g)، و<الجاف> من موقع <الغين> و<الخاء> أو من موقع تال لها. (بشر، لاتا: ٢٢٨)

٢. خلط مخارج الأصوات الصائتة، بمخارج الأصوات الصامتة، فقد ذکر <الألف> مع <الهمزة> و<الهاء>. إن أبجدية سيبويه علی ما نفهم، هی أبجدية الأصوات الصامتة،

أو الحروف الصحاح، بعبارتهم و<الألف> فى هذا السياق، لايمكن أن تكون إلا حركة، هى الفتحة الطويلة، ذكرها هنا، كان يوجب عليه ذكر <الواو> و<الياء> الممدودتين، أو الحركتين، ولكنه لم يفعل، ومن ثم جاز لنا أن نعترض عليه من جهتين:

١. ليس للألف مكان فى هذه الأبجدية لأنها حركة خالصة.

٢. وعلى فرض قبول وصفها فى هذه الأبجدية، على ضرب من التسامح فليس هذا موضعها. أنها ليست من منطقة <الهمزة> أو أية منطقة أخرى، يخرج منها حرف صامت. إنّ <الألف> بوصفها حركة إنما ينسب نطقها إلى وضع اللسان، وجزء معين منه، هو وسطه تقريباً. (المصدر نفسه: ٢٢٩)

٣. ذكر سيبويه (أقصى الحلق)، وجعله مخرجاً لثلاثة أصوات، هى (ء هـ ا) وقد اتضح للدارسين اليوم أن أقصى الحلق، يشير إلى موضع الحنجرة، التى تضم الوترين الصوتيين، اللذين لهما شأن فى نطق الأصوات الثلاثة، والأصوات الأخرى، ونسبة هذه الأصوات إلى الحنجرة، أدق من نسبتها إلى أقصى الحلق.



٤. لم يعُد تحديد سيبويه مخرج <الضاد> بأول حافة اللسان، ومايليها من الأضراس مطابقاً، لنطق <الضاد> عند المحدثين، وهو عند المحدثين <أسنانى لثوى>. (أنظر: حسان، ١٩٧٩م: ١٢٠؛ مختار عمر، ١٩٧٦م: ٢٦٩)

على أن هذا السلوك الذى سلكه سيبويه هنا، قد يكون له ما يفسره، وهو احتمال أن النطق القديم لهذا الصوت (الضاد)، يختلف عما يمارسه اليوم. (أنظر: مخزومى، ١٩٨٦م: ١٠٢؛ أنيس، ١٩٧٩م: ٤٨-٤٩)

٥. جعل سيبويه المخرج السادس عشر للنون الخفيفة، وهى أحد الأصوات الفرعية المستحسنة الخمسة التى ذكر أنها كثيرة فى كلام العرب، وتستحسن فى قراءه القرآن، والأشعار، هذه النون فرع عن النون الأصلية، ويمكن الاكتفاء بمخرج النون الأصلية. (بشر، ٢٠٠٠م: ١٨٨)

وأما ليس هناك فرق بين سيبويه، والدرس الصوتى الحديث فى توصيف مخارج بقية الأصوات مع الاختلاف فى التسمية. وهذا الفرق القليل بين سيبويه، والمحدثين فى

تحديد مخارج الأصوات التى أشيرت إليها، يعزى إلى استعانة المحدثين بأجهزة الصوت الحديثة، والاستفادة من علم تشريح الأعضاء.

صفات الأصوات

إن تحديد مخرج الصوت، لايكفى وحده لتوضيح خصائصه التى تميزه عن غيره من الأصوات، ذلک لاشتراک أكثر من صوت فى المخرج الواحدة ..، وهناک عناصر أخرى فى العملية النطقية، تسهم فى إعطاء الصوت خصائصه المميزة له، ويشكل المخرج أحد تلک العناصر، وهو بمثابة المكان الذى تحدث فيه تلک العملية المركبة من عدد من الأنشطة لأعضاء آلة النطق.

وقد اصطلح علماء العربية، والتجويد على تسمية ما يصاحب ما تكون الصوت فى مخرجه من أونشطه أعضاء النطق المختلفة بالصفات، ويعرفون الصفة بأنها كيفية عارضة للحرف عند حصوله فى المخرج، وتتميز بذلک الحروف المتحدة بعضها عن بعض.
(قدورى الحمد، ۲۰۰۲م: ۹۶)

يضم التراث العربى مباحث واسعة عن صفات الحروف، وتصنيفها على وفق تلک الصفات، وأقدم دراسة لصفات الحروف فى العربية، وأهمها ما ورد فى (الكتاب) لسيبويه، استعمل سيبويه طائفة من المصطلحات التى وصف بها أصوات الحروف العربية، واعتمد فى ذلک على معيار تحكم جهاز النطق بالهواء الخارج من الفم، كالمجهور، والمهموس، والشديد، والرخو، وما بينهما، والاطباق، والانفتاح، والاستعلاء، والاستفال، والقلقلة، والصفير، والتكرار، والانحراف.

المجهور والمهموس

من المعروف أن سيبويه لم يشر فى بحوثه إلى أوضاع الأوتار الصوتية التى تعدّ الأساس الأول، والأخير فى الحكم على الأصوات بالجهر، والهمس، ولكنه مع ذلک استطاع بطريقته الخاصة، أن يقسم أصوات العربية الصامتة إلى مجهورة، ومهموسة،

ووصل من ذلک إلى نتائج تتفق فى مجموعها مع نتائج الدراسات الصوتية الحديثة.

وصف سيبويه أصوات المجهورة بقوله: «فالمجهورة: حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت.» (سيبويه، ۱۹۹۱م، ج۴: ۴۳۴) ثم ذکرأن الحروف المجهورة فى اللغة العربية تسعة عشر حرفاً. قال: «فأما المجهورة فالهمزة، والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والدال، والزاى، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

وأما الحروف المهموسة فقد وصفها بأنها حرف «أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفس معه.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها) وجعل عدد الحروف المهموسة عشرة وهى: «الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها)



ضابط الجهر، والهمس عند سيبويه، هو جريان النفس مع الحرف أو توقفه. فإذا جرى النفس مع النطق بالحرف كان مهموساً، وإذا منع النفس من الجريان حتى ينتهى النطق كان مجهوراً.

والصوت المجهور عند المحدثين، الذى يسمونه Voiced هو الذى يهتز أو «يتذبذب الوتران الصوتيان حال النطق به.» (بشر، ۱۹۷۱م: ۸۷) وليس معنى ذلک انعدام الذبذبات من النفس الذى معه، ولکن المراد بهمس الصوت، هو صمت الوترين الصوتيين معه.» (أنيس، ۱۹۷۹م: ۲۰) وسيبويه وإن لم يکن على معرفة بدور الوترين الصوتيين فى حدوث الجهر، والهمس، ولکنه عرف أهم مظاهره فى الصوت المجهور، حيث وصف المجهور «بأنه متمکن مشبع فيه وضوح وفيه قوة، وتلک هى الصفة التى يشير إليها الأروبيون بقولهم (sonority).» (المصدر نفسه: ۱۲۳-۱۲۴)

وکان سيبويه أول من فرق بين المجهور، والمهموس من علماء العربية يقول: «وإنما فرق بين المجهور، والمهموس أنک لاتصل إلى تبيين المجهور، إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر. فالمجهورة کلها هکذا يخرج صوتهن من الصدر، ويجرى فى

الحلق ... وأما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها، وذلک مما یزجی الصوت، لم یعتمد علیه فیها کاعتمادهم فی المجهورة، فأخرج الصوت من الفم ضعیفاً. والدلیل علی ذلک أنک إذا أخفیت همست بهذه الحروف، ولاتصل إلی ذلک فی المجهورة، فإذا قلت: شخص، فإن الذی أزجی هذه الحروف صوت الفم، ولکنک تتبع صوت الصدر هذه الحروف بعدما یزجیها صوت الفم، لیبلغ ویفهم الصوت. فالصوت الذی من الصدر هاهنا نظیر الصوت الذی ترفعه بعد ما یزجی صوت الصدر، ألا تری أنک تقول: قام، فإن شئت أخفیت، وإن شئت رفعت صوتک، فإذا رفعت صوتک فقد أحدثت صوتاً آخر.» (قدوری الحمد، ١٩٨٦م: ١٢٩–١٣٠؛ أنیس، ١٩٧٩م: ١٢١–١٢٢)

وهذا النص «یتضمن آراء قیمة فی الدراسة الصوتیة تتفق مع أحدث النظریات الحدیثة إلی حد کبیر. فسیبویه یرشدنا هنا إلی وسیله أخری لتمییز المجهور من المهموس، وذلک عن طریق إخفاء الصوت، وأنه یمکن هذا الإخفاء مع المهموسات دون أن تفقد معالمها. أما الإخفاء فی المجهورات فیترتب علیه أن الحرف تضیع صفته الممیزة، فلانسمع الدال دالاً حینئذ، وإنما نسمع صوتاً آخر هوالتاء.» (أنیس، ١٩٧٩م: ١٢١)



إذن أساس التمییز بین المجهور والمهموس عند سیبویه فرق بین صوت الصدر فی المجهور، حیث یربطه بقوة ضغط الهواء واعتراض طریقه، وبین صوت المخارج فی الفم التی تتکون منه الأصوات، ویربطه بضعف ضغط الهواء، والسماح له بالمرور. (ردینی، ٢٠٠٢م: ١٨۴) أما أساس هذا التقسیم عند المحدثین، فهو ذبذبة الأوتار الصوتیة، وعدمها داخل الحنجرة، وسیبویه وإن لم یکن علی معرفة بدور الوترین الصوتیین فی التحکم بطبیعة الصوت، لم تکن نتائج وصفه بعیدة عن وصف المحدثین، لأصوات المجهورة، والمهموسة التی جاءت مطابقة لوصفه لها، وقع الخلاف بین المعاصرین، وسیبویه فی عدّه <القاف، والطاء، والهمزة> من الأصوات المجهورة علی حین أن هذه الأصوات الثلاثة لیست مجهورة بحال من الأحوال فی النطق الحاضر للغة العربیة، وعلی أن هذا الخلاف یمکن تفسیره .

أما <الطاء> فیری المحدثون، أنها مهموسة الیوم، ومجهورة بضابط سیبویه، ویرجح

إبراهيم أنيس أن صوت <الطاء> قد طرأ عليه تغيير حيث يرى «أن صوت الطاء ـ كما وصفها سيبويه – كان يشبه الضاد الحديثة لدى المصريين.» (أنيس ١٩٧٩م: ٦٢) واستند فی رأيه إلى عبارة سيبويه: «ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٦) أی كالضاد المصرية.

أما صوت الهمزة، فقد ذهب سيبويه، وعلماء العربية إلى أنه مجهور، واختلف المحدثون فی صفته، فبعضهم قال: إنما مهموسة، وتأتی جهة الهمس فی هذا الصوت من أن إقفال الوترين الصوتيين معه لايسمح بوجود الجهر فی النطق. (حسان، ١٩٧٩م: ٩٧؛ كانتينو، ١٩٩٦م: ١٢٣) ووصفها آخرون بأنها ليست مجهورة ولامهموسة، لأن وضع الوترين حال النطق بهما لايسمح بالقول بوجود ما يسمى بالجهر أو الهمس. (سعران، ١٩٦٢م: ١٧١؛ بشر، ١٩٧١م: ١٤٢؛ أنيس، ١٩٧٩م: ٩١)

أما <القاف> فهو صوت مهموس عند المحدثين. ويفسر كمال بشر اختلاف الموجود بين سيبويه والمحدثين قائلاً: «والقول بأن <القاف> مجهورة يمكن تفسيره بأن سيبويه كان يصف نطقاً بيئياً معيناً يتفق مع نطق هذا الصوت فی اللهجات الحديثة فی أكثر البلاد العربيه. فهم ينطقونه حنكياً قصياً مجهوراً (G) وربما يؤيد هذا الاحتمال أن سيبويه لم ينسب <القاف> إلى اللهاة، وإنما نسبها إلى أقصى الحنک أو أقصى اللسان (كما عبر هو) وهو موضع نطق <الكاف> أو فی أطاره، وهذا الموقع إنما يناسب <الجاف> لا<القاف> أو لعل سيبويه عاملها معاملة الجاف (گ) الفارسية.» (بشر، لاتا: ٢٢٧ –٢٢٨)

الشدة والرخاوة

تصنف أصوات العربية فی التراث الصوتی العربی بناء على أساس درجة الانفتاح أو نوع الاعتراض على ثلاثة أنواع هی:

أ. الشديدة، ويسميها كثير من المحدثين الانفجارية (Plosives) أوالوقفات (Stops).

ب. الرخوة، ویسمیها کثیر من المحدثین الاحتکاکیة.

ج. المتوسطة، أو البینیة، أی بین الشدة والرخوة.

أ) الأصوات الشدیدة

تتکون الأصوات الشدیدة (الانفجاریة) من اجتماع أمرین: الأول: حبس النفس الخارج من الرئتین حبساً تاماً فی موضع ما من آلة النطق، فیضغط الهواء خلف ذلک الموضع. والثانی: إطلاق النفس المضغوط بانفصال العضوین انفصالاً سریعاً، فیندفع الهواء محدِثاً صوتاً انفجاریاً. (قدوری الحمد، ۲۰۰۲م: ۱۱۰)

عرف سیبویه الصوت الشدید بأنه «الذی یمنع الصوت أن یجری فیه والحروف الشدیدة هی: الهمزة، القاف، الکاف، الجیم، الطاء، التاء، الدال، الباء.» (سیبویه، ۱۹۹۱م، ج۴: ۴۳۴)



یبدو أن مفهوم سیبویه للشدید یتطابق مع مفهوم المحدثین، یدل علی ذلک قوله وهو یتحدث عن <الطاء> و<الدال>: «لأنها حصرت الصوت من موضعها کما حصرته الدال.» (المصدر نفسه: ۴۶)

والملاحظ أن الأصوات التی عدّها سیبویه شدیدة هی تلک التی یسمیها الدرس الصوتی الحدیث <وقفات> أو <الانفجاریة> باستثناء حالتین هما:

۱. أخرج سیبویه <الضاد> من الأصوات الشدیدة، لأنه یصف الضاد الرخوة علی حین عدّها المعاصرون انفجاریة لانطباق صفات الانفجاریة علیها دون أدنی خلاف.

یقول کمال بشر: «فلعل سیبویه هنا کان صادقاً فی ملاحظته، حیث کان یتکلم عن <ضاد> مختلفة عن تلک التی نمارسها فی مصر. وربما یؤید هذا الزعم جملة من النصوص أوردها فی کتابه ومن أهمها قوله: لولا إطباق لصارت <الطاء> <دالاً> و<الصاد> <سیناً> و<الظاء> <ذالاً> وأخرجت <الضاد> من الکلام معناه أنه لیس فی العربیة – علی رأیه – نظیر غیر مطبق للضاد، علی حین أن <الدال> نظیرها المرقق فی نطقنا.» (بشر، لاتا: ۲۳۰)

٢. أما <الجيم> فقد وصفها سيبويه بأنها صوت شديد، على حين من المحدثين يذهب إلى أنه صوت مركب يجمع بين الشدة، والرخاوة فی نطقه. فقد لوحظ أن انفصال وسط اللسان عن الغار فی أثناء النطق بالجيم لايحدث فجأة، كما يحدث فی نطق الأصوات الشديدة، بل يتم الانفصال ببطء مما يجعل آخر الصوت تشوبه شائبة من الرخاوة أو الاحتكاكية. (أنظر: حسان، ١٩٧٩م: ١٠٣؛ سعران، ١٩٦٢م: ١٨٢، بشر، ١٩٧١م: ١٦)

ولما كانت اللاحقة الاحتكاكية التی تتبع صوت الجيم غير بارزة كثيراً، فإن وصف سيبويه لصوت الجيم بالشدة يبدو مقبولاً، ولايستوجب تخطئتهم، لاسيما أن من علماء الأصوات المحدثين من يرفض الاعتراف بالطبيعة المركبة لصوت الجيم، ويفضلون النظر إليه باعتباره صوتاً انفجارياً (شديداً). (قدوری الحمد، ٢٠٠٢م: ١١٢)

ب) الأصوات الرخوة

الصوت الرخو (الاحتكاكی) وهو الذی لا ينحبس الهواء فی مجراه حبساً تاماً، وذلک بأن يضيق النفس مجری باقتراب عضوين من أعضاء آلة النطق نحو بعضهما فی مخرج الحرف دون أن يقفلا المجری، فيحدث النفس فی أثناء مروره بمخرج الصوت حفيفاً مسموعاً، تختلف نسبته تبعاً لنسبة ضيق المجری. (كانتينيو، ١٩٦٦م: ٢٤، أنيس، ١٩٧٩م: ٢٣)

وكان سيبويه قد جعل الحروف الرخوة ثلاثة عشر حرفاً هی: «هـ ح غ خ ش ص ز س ظ ث ذ ف.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٤) والأصوات التی عدّها سيبويه رخوة، هی التی أطلق عليها فی الدرس الصوتی الحديث، الأصوات الاحتكاكية، باستثناء حالتين:

١. أنه أخرج <العين> من الأصوات الرخوة وجعله متوسطاً (بين الشدة والرخوة) على حين حكم عليها النظر الحديث بأنها احتكاكية، يعتقد كمال بشر بأن «فی صوت <العين> شبهة، إذ هی أقل أصوات الاحتكاكية احتكاكاً.» (بشر، ١٩٨٠م: ١٢١) ومن ثم نری أن هناک مسوغاً لحيرة سيبويه فی الحكم عليها، وعدها صوتا متوسطا.

٢. أدخل <الضاد> ضمن الأصوات الرخوة، كما سبق الإشارة إليها.

ج) الأصوات المتوسطة

وهی تلک الأصوات التی لاتندرج فی الأصوات الشدیدة، ولا الرخوة، لطبیعة شکل اعتراض النفس فیها، وهی تضم <الراء، اللام، المیم، النون> ویطلق الدارسون المحدثون علی هذه الأصوات الأربعة صفة الأصوات المتوسطة أو البینیة. من الجدیر بالذکر أن علماء العربیة منذ القدیم قد أدرکوا أن لأصوات <لم نر> أی (ل م ن ر) سمات معینة، ترشحها لتشکیل صنف خاص فی منظومة الأصوات العربیة، وهذا ما سلکه بالفعل شیخهم سیبویه، فبعد أن صنف سیبویه الأصوت إلی قسمیها الرئیسیین – أی الأصوات الشدیدة والأصوات الرخوة – انتحی نحو هذه الأربعة: <لم نر> وأفرد لها إشارات خاصة، إدراکاً منه أن لها ذوقاً نطقیاً مختلفة، وأن لها سمات لاتؤهلها للانضمام إلی واحد من هذین الصنفین، فهذه الأصوات – وإن اختلفت فیما بینها فی بعض الخواص کالمخرج مثلاً – تشترک فی مجموعها فی ملمح یمیزها من بقیه الأصوات الصامتة، هذا الملمح الممیز یمکن فهمه من عبارات عند وصفه لها، یقول سیبویه: «ومنها المنحرف[1]، وهو حرف شدید جری فیه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم یعترض علی الصوت کاعتراض الحروف الشدیدة، وهو اللام، وإن شئت مددت فیها الصوت، ولیس کالرخوة لأن طرف اللسان لایتجافی عن موضعه ولیس یخرج الصوت من موضع اللام، ولکن من ناحیتی مستدق اللسان وفویق ذلک.» (سیبویه، ١٩٩١م، ج۴: ۴٣۵)

ویستمر سیبویه متنقلاً إلی <النون> و<المیم> فیقول: «ومنها حرف شدید یجری معه الصوت، لأن ذلک الصوت غنة[2] من الأنف، فإنما تخرجه من أنفک واللسان لازم لموضع الحرف، لأنک لو أمسکت بأنفک لم یجر معه الصوت، وهو النون، کذلک المیم.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

---

١. وصف اللام بالانحراف یستند إلی ما تقدم من أن النفس ینحرف إلی الجانبین عند النطق به، ویستخدم کثیر من المحدثین مصطلح <جانبی> فی وصف اللام، وهوعین معنی وصفه بالانحراف لدی سیبویه.

٢. الغنة الصوت الذی یخرج من الأنف. وترد فی الکتاب سیبویه کلمة الخیشوم مکان کلمة الأنف (ج٤/٤٣٤) وأکثر الأصواتیین المحدثین یسمون هذه الصفة بالأنفیة، نسبه إلی الأنف، متأثرین بالمصطلح الغربی (Nasal) ویبدو أن تسمیة علماء العربیة تستند إلی الأثر السمعی لهذه الصفة، وتسمیة المحدثین تسند إلی موضع صدورها، وأصوات الغنة (أی الأنفیة) فی العربیة صوتان هما النون، والمیم.

أما بالنسبة للراء فيقول سيبويه: «ومنها المكرر، وهوحرف شديد يجرى فيه الصوت لتكريره، وانحرافه إلى اللام، فتجافى للصوت كالرخوة، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

وتفسير كلام سيبويه هو أن اللام، والنون، والميم أصوات شديده من حيث إن الهواء عند إصدارها يقف عند نقطة النطق، ولكن هذا الهواء فى الوقت نفسه يخرج أو يجرى بعبارة سيبويه من منافذ أخرى، تتمثل هذه المنافذ فى جانبى الفم كما فى حال اللام، وفى الأنف فى حال النون، والميم. ومعنى هذا أن هذه الأصوات الثلاثة، تقع فى إطار الأصوات الشددية من جانب، ولكنها مع ذلک تنفرد من جانب آخر بسمات نطقية أخرى مهمة، وهى جريان الهواء، وخروجه حراً طليقاً من منافذه عند النطق بها، بدلاً من خروجه منفجراً من موضعه، أى من نقطه النطق بعد الوقفة كما هو الحال فى الشديدات، أى فى الأصوات الشديدة، وكذلک الحال مع <الراء>، حيث يحدث عند النطق بهذا الصوت وقوف الهواء عند مخرجه، وجريان له وخروج، وان كان هذا الوقوف وذاک الجريان يحدثان متكررين، ويؤخذ من هذه السمة، سمة جريان الهواء وخروجه من منافذه، (سواء أكان ذلک بحرية تامة، كما فى اللام والنون والميم، أم بحرية نسبية كما فى الراء) – يؤخذ من هذه السمة أمر غاية فى الأهمية، ذلک أن هذه الأصوات الأربعة (والثلاثه الأولى منها بوجه خاص)، على الرغم من شدتها – أى وقوف هوائها عند النطق– تنحوبسمتها تلک – وهى سمة جريان الهواء – تنحو نحو الأصوات الرخوة أو تكاد تشبهها ولكنها ليست منها، إنما تنحو نحوها أوتكاد تشبهها فى ملمح واحد فقط، وهو مطلق مرور الهواء، وخروجه من مخرج ما، لا وقوفه، كما هو الحال فى الأصوات الشديدة، ولكن هناک فرقاً – وهو فرق كبير – ويظهر هذا الفرق فى كيفيه خروج الهواء، ونوعية مروره، فبينما يخرج هواء الأصوات الأربعة، ويجرى فى منافذه حراً طليقاً دون عائق، سواء أكان الجريان مستمراً كاملا فى اللام، والنون، والميم، أم كان منقطعاً كما فى الراء، يخرج هواء الأصوات الرخوة متعسراً معوقاً عوقا جزئيا لمروره من منافذ ضيقة من الفم، تسمح للهواء بالمرور، وإن بشىء من العسر، بحيث يحتک بأعضاء النطق ويحدث



حفيفاً مسموعاً. (بشر، ۲۰۰۰م: ۳۵۱ –۳۵۲)

ولعل انتحاء هذه الأصوات الأربعة الشديدة نحو الأصوات الرخوة، وظهور اقترابها منها فی خاصة مطلق مرور الهواء لا انفجاره بعد الوقفة، هو الذی دفع علماء العربية فيما بعد سيبويه إلی تسميتها بالأصوات البينية، أو الأصوات المتوسطة. ولكن واضح أن أساس هذه التسمية يرجع الفضل فيه إلی سيبويه الذی يعدّ أول من لمح هذه الخواص لهذه الأصوات الأربعة. (المصدر نفسه: ۳۵۲) زد علی هذا أن سيبويه نفسه قد صرّح بهذه البينية عند إشارته إلی صوت خامس ضمّه إلی هذه الأصوات، هذا الصوت الخامس هو<العين> يقول سيبويه: «وأما العين فبين الشديدة، والرخوة ...» (سيبويه، ۱۹۹۱م، ج۴: ۴۳۵) فصارت الأصوات البينية أو المتوسطة خمسة يجمعها قولهم: <لم نرع>.



يبدو من كلام سيبويه حول صوت <العين> أنه أحس بأن هناک فرقاً من نوع ما بينه وبين الأصوات الأربعة، ودليل ذلک أنه أفرد له كلاماً مستقلاً، بادئاً بالأداة <أمّا> التی تدل علی مغايرة اللاحق للسابق، وأنه نعته بالبينية بالتصريح فی خلاف الحال فی الأربعة الأولی، حيث اكتفی سيبويه فيها بتسجيل خواصها المتراوحة، أی المتراوحة بين الشدة والرخاوة. والأهم من ذلک أن سيبويه لم يصف <العين> بالشدة، ولم يحاول ضمها أو نسبتها إلی الأصوات الشديدة، بل علی العكس تماماً مما صنع بالأصوات الأربعة <لم نر> وما فعله سيبويه هنا علاقة الإدراک الواعی لقيم هذه الأصوات وعمق التذوق لخواصها النطقية، ذلک أن الدرس الصوتی الحديث يقرر موكداً أن صوت العين لاعلاقة له بالأصوات الشديدة من قريب أو من بعيد، وأنه بمعايير التصنيف المقررة للأصوات، يعدّ صوتاً رخواً باصطلاحهم أو احتكاكی، غاية الأمر أن هذا الصوت الاحتكاكی نفسه، هی أقل الأصوات الاحتكاكية، فصوت <العين> إذن فيه شبهة الابتعاد عن الأصوات الاحتكاكية، وعن انتمائه فی الوقت نفسه نحو قبيل آخر، هو قبيل الأصوات التی يخرج هواؤها، حراً أو بأخری وهی «اللام، والنون، والميم، والراء، ومن هنا ساغ لسيبويه وصف العين بالبينية.» (بشر، ۲۰۰۰م: ۳۵۳)

الإطباق والانفتاح

الإطباق، هو ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنک، حتى يصير كالطبق له وحروفه: ص، ض، ط، ظ. (ردينى، ٢٠٠٢م: ١٨٦) وتؤدى ظاهرة ارتفاع أقصى اللسان، وتراجعه إلى الخلف بإتجاه الجدار الخلفى للحلق عند وضع طرف اللسان فى مكانه من المخرج إلى تفخيم الصوت، وتتنوع بذلک أصوات طرف اللسان إلى أصوات مفخمة، وأصوات غير مفخمة (مرققة). (حسان، ١٩٧٩م: ٨٩) لكن هذه الظاهرة أو الصفة الصوتية، يمكن أن تكون صفة مميزة مع بعض الأصوات، وأن تكون صفة مُحَسّنة مع أخرى، وقد تكون تنوعاً سياقياً، للصوت فى مواقعه المختلفة فى التركيب. وتجدر الإشارة إلى أن أصوات أقصى اللسان، وأصوات أدنى الحلق إلى الفهم، وهى «ق غ خ، أصوات مفخمة أيضا، لكن صفة التفخيم فيها محسنة، وليست مميزة، وتسمى صفة التفخيم المميزة بالإطباق، ويقابله الانفتاح.» (قدورى الحمد، ٢٠٠٢م، ١١٧)

تحدث سيبويه عن أصوات ذات صفات مميزة، وهى ما سماها أصوات الإطباق، وبين علة هذه النسبة، وقيمة هذه الصفة، وهى قيمة دلالية فى الأساس، إذ بها يتم التفريق بين الكمات المتناظرة التى تحتوى على هذه الأصوات، وعلى أخواتها المرققة، كما فى مثل طاب تاب، فالتاء صوت منفتح، وإذا صاحبه اطباق صار طاءً. قال سيبويه: «ومنها المطبقة والمنفتحة، فأما المطبقة فالصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والمنفتحة كل ما سوى ذلک من الحروف، لأنک لا تطبق لشىء منهن لسانک، ترفعه إلى الحنک الأعلى، وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانک فى مواضعهن انطبق لسانک من مواضعهن إلى ما حاذى الحنک الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنک الأعلى، فإذا وضعت لسانک فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنک إلى موضع الحروف، وأما الدال، والزاى، ونحوهما، فإنما ينحصر الصوت إذا وضعت لسانک فى مواضعهن.

فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بُينَ بحصر الصوت، ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً، الصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شى ء من موضعها غيرها.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٦)

إنّ هذه العبارة المشهورة لتبرز بوضوح شعوره بوظيفة هذه الضاد التمييزية، وبالعلاقه التقابليه التی تربطها، وهو ما أصبح اليوم من مشمولات علم الفونولوجيا، أی علم وظائف الأصوات. ولكن تجدر الإشارة إلى أن هذا الوصف لهذه الأصوات فی كلام سيبويه، مبنی علی ما كان ينطق فی زمانه، والمناسب للنطق المعاصر أن يقال: ولولا الإطباق لصارت الطاء تاءً، والضاد دالاً ... إلخ.

ويشير علماء الأصوات المحدثون إلى أن اللسان يأخذ شكلاً مقعراً فی حاله الإطباق، فيرتفع من طرفه، ويتصعد من أقصاه. (بشر، ١٩٧١م: ١٢٩؛ أنيس، ١٩٧٩م: ٤٧) ولعل هذا هو مراد سيبويه من قوله: «فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان.»

وهذه الأصوات المطبقة (وهی الضاد، والطاء، والصاد، والظاء) ضمّ إليها سيبويه ثلاثة أصوات أخرى وهی: «قاف، عين، خاء.» وسمّاها جميعاً أصوات الاستعلاء.[١]

وأشار إلى شیء من خواص هذه الأصوات السبعة فی التركيب، وبين أثرها علی ما يجاورها، وبخاصة <ألف الإمالة> يقول: «هذا باب ما يمتنع من الإمالة من الألفات التی أملتَها فيما مضى. فالحروف التی تمنعها الإمالة هذه السبعة: <الصاد، الضاد، الظاء، الطاء، الغين، القاف والخاء>، إذا كان حرف منها قبل الألف، والألف تليه. وذلک قولک: قاعد، وغائب، وخامد، وصاعد، وطائف، وضامن، وظالم، وإنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنک الأعلى. والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنک الأعلى، فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ١٢٨-١٢٩)



أنصاف الحركات (Vowels Semi)

يطلق هذا المصطلح علة <صوائت انزلاقية> يحدث فيها أن تبدأ الأعضاء بتكوين

١. هناک فوق بين صفة الإطباق وصفة الاستعلاء فی الأصوات الثلاثة (غ خ ق)، فالإطباق من الصفات المميزة، والاستعلاء الخالی من الإطباق من الصفات المحسنة، وإنما جمع العلماء الأصوات السبعة فی هذه الصفة لاشتراكها فی الوضع الذی يتخذه أقصی اللسان عند النطق بها، وهو الارتفاع الذی يترتب عليه تفخيم هذه الأصوات. (قدوری الحمد، ٢٠٠٢م: ١٣٦- ١٣٧)

<صائت ضيق> (كالكسره مثلاً) ثم تنتقل بسرعة إلى <صائت> آخر أشد بروزاً، ولا يدوم وضع الصائت الأول زمناً ملحوظا، والذی يدعو إلى إدراج هذه الأصوات تحت طبقة الصوامت هو ما تتميز به من انتقال سريع مع ضعف فی قوة النفس. (سعران، ١٩٦٢م: ١٨٠) وفی العربية صوتان ينطبق عليهما هذا الوصف هما الواو نحو (ثَور) والياء نحو (بَيت). «تتمثل الخواص الوظيفية لكل من الصوتين المذكورين فی أنهما يؤديان مهمة (الأصوات الصامتة) إذا وقعا ساكنين، وقبلهما فتحة، أو إذا كانا متبوعين بحركة.» (بشر، ١٩٧١م: ٨٣)

والحقيقة أن هذه الأصوات من حيث النطق والصرف تقترب من الحركات فی صفاتها، ولكنها فی التركيب الصوتی للغة تسلک مسلک الأصوات الصامتة، ومن هنا كانت تسميتها بأنصاف حركات، ويجوز تسميتها بأنصاف صوامت، ولكن المصطلح الأول المشهور. (بشر، ٢٠٠٠م: ٣٦٨)



وتكون صفة (الاحتكاک) سبباً فی خروج هذين الصوتين عن الصفة المدية بعض الخروج، ولكونهما أقل درجة فی قوة الأسماع. إذ ينشأ ضيق فی مجرى الهواء فی أثناء النطق بهما بسبب من ارتفاع اللسان، وأعاقته عن خروج الهواء بعض العوق، سمع شیء من الاحتكاک الخفيف عنه الصوتان. (الياء والواو) (مختار عمر، ١٩٧٦م: ٢٨٣)

وعلى الرغم من أن سيبويه قد حشر (الألف، والباء، والواو) ضمن ترتيب الأصوات الصامتة، وهو أمر لايمكن تسويغه لأن (الألف) صوت مد لاحيز له، و(الواو، والياء) ليست لهما إلاّ فی بعض الحالات صفة الأصوات الصامتة حين يكونان فی حاله نصف المد، لأنهما فی كثير من أحوالهما يعدان صوتی مدّ، فإنه قد فطن بملاحظته الدقيقة إلى ازدواجية صوتی <الواو>، و<الياء> إذا لاحظ أن «الألف لا تغير على كل حال، لأنها لوحركت صارت غير ألف، والواو، والياء تحركان ولا تغيران> ثم أنه أشار إلى أنّ <الألف> حرف لين اتسع مخرجه لهواء الصوت، مخرجه أشدّ من اتساع مخرج الياء، والواو، لأنک قد تضمّ شفتيک فی الواو، وترفع فی الياء لسانک قبل الحنک.» فهو وإن عقل ذكر دور اللسان فی إخراج الواو فقد أشار صراحة إلى وظيفة اللسان فی إخراج

الياء، وإنّ تعبيره ب(قد) تعبير دقيق عن وجود حال يجنح فيها صوتا الواو، والياء عن أن يكون صوتى مدٍّ محض. وفى كلامه على (الياء) حين تحركت إشارة لطيفة إلى أنها خرجت عن أن تكون صوت مد محض قال: لأنها – أى الياء – لما تحركت خرجت من أن تكون حرف لين، وصارت مثل غير المعتل نحو(باء) ضربه، وبَعُدَ شبهُها من الألف. (حسن أحمد، ١٩٩٦م: ٩٨ – ٩٩)

نخلص مما سبق إلى أن سيبويه قد فطن إلى فكرة تحول (الواو، والياء) فى حاله المدّ المحض إلى حالة نصف المدّ وهذه الحقيقة التى توصل إليها سيبويه أمر يقرّه البحث الصوتى الحديث.

الأصوات اللينة

الصفة التى تختص بها أصوات حروف المدّ أوالحركات هى: «كيفية مرور الهواء فى الحلق، والفم، وخلو مجراه حوائل وموانع.» (أنيس، ١٩٧٩م: ٢٦) وقد تعرف بـ (الصوائت). إن عدد الحركات فى اللغة العربية عبارة عن ثلاث حركات طوال، وثلاث حركات قصار، فيصبح مجموع الحركات العربية ست حركات. وللعلماء العربية فى القديم شيء من الجهد غير المنكور فى تعريف الحركات فى اللغة العربية، وبخاصة الحركات الطوال التى سموها حروف المد وهى: الألف فى (قال)، والياء فى (قيل)، والواو فى (يقول). ظهر اهتمام بالحركات القصار: الفتحة، والكسرة، والضمة فى أول الأمر على يد الشيخين الكبيرين أبى الأسود الدوئلى، والخليل بن أحمد الفراهيدى، جاءت المبادرة الحقيقية فى هذا الشأن من أبى الاسود الدوئلى، حيث وضع ما يعرف بنقاط الشكل – أى علامات ضبط الكلام – حفاظاً على صحته نطقاً، وتجنباً للوقوع فى الخطأ، وبخاصة فى قراءة القرآن الكريم. ثم جاء الخليل، وقام بخطوة أخرى بارعة، واستبدل من نقاط الشكل تلك العلامات المعروفة: الفتحة، والضمة، والكسرة. (بشر، ٢٠٠٠م: ٤٢٠ –٤٢١)

ولكن كانت عناية العرب بحروف المد (حركات الطوال)[١] أكثر من اهتمامهم بحركات

١. الحركات الطوال مصطلح حديث نسبياً، يطلق على ما يعرف فى القديم بحروف المد.



القصار، يبدو أن له أسباباً: أهمها ما لاحظوه من تعرضها للتغير، والتبدل من سياق إلى آخر. فانكبوا على هذه الظاهرة، وعالجوها علاجاً موسعاً، لا من الناحية الصوتية فقط، بل امتد عملهم إلى الجوانب الصرفية، وعلى الرغم من نظرتهم الثاقبة، المتمثلة فى ربط الحركات القصار بحروف المد، لاشتراكها معها فى خاصتها الأساسية وهى: حرية مرور الهواء عند أدائها نطقاً، فإنهم لم يلتفتوا إليها التفاتاً كافياً، ينبىء عن موقعها بوصفها مكوناً مهماً من مكونات النظام الصوتى للغة، لقد نظروا إليها، وتعاملوا معها كما لو كانت شيئاً عارضاً، أوتابعاً للحروف الأصوات الصامتة، وليس للحركات استقلال، أو كيان خاص، بل عدّها بعضهم زوائداً، ليست أصلاً فى بناء الكلمة. (أنظر: بشر، ١٩٧١م: ١٩٠؛ أنيس، ١٩٧٩م: ٣٧)



لقد استطاع سيبويه بطريقة أو بأخرى أن يدرک أساس الفرق بين الصوامت، والحركات نعم إنه لم يتكلم كثيراً عن الحركات القصار، ولكنه تحدث عن الحركات الطوال، أو الحروف المد، وأدرک العلاقة بين الحركات القصار، والطوال وأنها من طبيعة واحدة، يقول سيبويه: «فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٢٤٢) الحركات الطوال أو بتعبير سيبويه حروف اللين هى: «حروف المدّ التى يمدّ بها الصوت، وتلک الحروف: الألف، والواو، والياء.» (المصدر نفسه: ٤٢٦) ولهن أصوات أقصر منها، وهى حروف المدّ القصيرة، وقد وصفها سيبويه بأنها أجزاء من حروف المد الطويلة قال: «وإنما الحركات من الألف، والياء، والواو.» (المصدر نفسه: ١٠١) فأشار إلى خاصيتها الأساسيتين: الجهر، وحرية مرور الهواء من الفم بدون عائق أومانع، و«قادته هذه الفكرة إلى القول بمدّ الصوت بها وإنّ استعمال مصطلح <المدّ> قريب من مصطلح (Vowels) فى اللغة الإنكليزية الذى يحمل الدلالة نفسها. (حسن أحمد، ١٩٩٦م: ٩٦) يقول سيبويه تحت باب (الوقف فى الواو، والياء، والألف): «وهذه الحروف غير مهموسات، وهى حروف لين، ومدّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شىء من الحروف أوسع مخارج منها، ولا أمدّ للصوت، فإذا وقفْتَ عندها لم تضمها بشفة، ولا لسان، ولا حلق كضمّ غيرها، فيهوى الصوت إذا وجد متّسعاً حتى ينقطع آخره

فی موضع الهمزة.» (سیبویه، ۱۹۹۱م، ج۴: ۱۷۶)

ومما یکمل فهم سیبویه لطبیعة هذه الأصوات، وهو یتحدث عن صفات الحروف: «ومنها الهاوی، وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الیاء، والواو، لأنک قد تضم شفتیک فی الواو، وترفع فی الیاء لسانک قبل الحنک وهی الألف.» (المصدر نفسه: ۴۳۳)

النتیجة

لقد تطور علم الأصوات فی السنوات الأخیرة تطوراً سریعاً، وملحوظاً وذلک نتیجة للتطور الهائل فی الأجهزة الإلکترونیة، والتطور الهائل فی مجالات التصویر بالأشعة، وجهود العلماء المخلصین، ومع هذا کلّه فقد بقی علم الأصوات بکراً، فیه میدان واسع لکثیر من البحوث الجادة، لقد قام العلماء المسلمون (عرباً أو غیرعرب) بتسطیر صفحات مشرقة فی هذا المجال، دون أن یعتمدوا علی أجهزة الکترونیة، بل اعتمدوا أحاسیسهم بتجربتهم الذاتیة.

حاولت فیما قدمت من الدراسة أن أطل إطلالة عامة علی صنیع سیبویه فی الدرس الصوتی، وسعیت إلی أن أجری بعض المقارنات بقصد تبیین موقعه الصحیح بین ما توصل إلیه الدرس الصوتی الحدیث، ووصلت إلی أن سیبویه تنبه إلی أنّ اللغة قائمة علی مبدأ العلاقات، وأن بنیة هذا النظام هی الأصوات. تناول الأصوات المنطوقة للوصف، فبین عددها، وحدد مخارجها اعتماداً علی السمع، والنطق، وعلی الرغم من عدم معرفته بدور الوترین الصوتین فی التحکم بطبیعة الصوت، فإن النتائج التی توصل إلیها فی میدان وصف الأصوات، لم تکن فی معظمها بعیدة عن وصف المحدثین، الذین یعتمدون علی تجارب مختبر الصوت، واعتمد فی دراسته لأصوات العربیة علی الجانب الفسیولوجی، أو النطقی فی الأساس، وهو جانب لم یزل ذا أهمیة بالغة فی نظر الدارسین المحدثین، وإن کان هؤلاء المحدثون قد أخذوا فی الحسبان جوانب أخری فی تحلیل الأصوات اللغویة، ذلک مثلاً الجانب الفیزیایی أو الآکوستیکی الذی ظهرت أهمیته البالغة فی التعرف علی طبائع الأصوات، ومکوناتها الحقیقیة.

المصادر والمراجع

أنيس، إبراهيم. ١٩٧٩م. *الأصوات اللغوية*. الطبعة الخامسة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ابن جنى، أبو الفتح عثمان. لاتا. *الخصائص*. تحقيق محمد على النجار. الطبعة الثانية. بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر.

باى، ماريو. ١٩٧٣م. *أسس علم اللغة*. ترجمه أحمد مختار عمر. طرابلس: منشورات جامعه طرابلس، كلية التربية.

بشر، كمال. ١٩٧١م. *علم اللغة العام: الأصوات*. الطبعة الثانية. مصر: دارالمعارف.

بشر، كمال. ٢٠٠٠م. *علم الأصوات*. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.

بشر، كمال. ١٩٧٥م. جهود *العرب فى الدراسات الصوتية*. مجلة الثقافة العربية. العدد الرابع. السنة الثانية. ليبيا: مجلس الثقافة العام بالجماهيرية الليبية.

بشر، كمال. لاتا. *الأصوات عند سيبويه*. ١٦ مقاله تحقيقى به زبان عربى درباره سيبويه. به اهتمام احمد افشار شيرازى. شيراز: انتشارات دانشگاه شيراز.

حسان، تمام. ١٩٥٨م. *اللغة بين المعيارية والوصفية*. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

حسان، تمام. ١٩٧٩م. *مناهج البحث فى اللغة*. الدار البيضاء: دارالثقافة.

حسن أحمد، نوزاد. ١٩٩٦م. *المنهج الوصفى فى كتاب سيبويه*. الطبعة الأولى. بنغازى: منشورات جامعة قاريونس دار الكتب الوطنية.

سعران، محمود. ١٩٦٢م. *علم اللغة مقدمة اللقارىء العربى*. القاهرة: دار المعارف.

سيبويه، عمرو بن عثمان. ١٩٩١م. *الكتاب*. تحقيق عبدالسلام هارون. الطبعة الأولى. بيروت: دارالجيل.

رديني، محمد على عبدالكريم. ٢٠٠٢م. *فصول فى علم اللغة العام*. الطبعة الأولى. بيروت: عالم الكتب.

زوين، على. ١٩٨٦م. *منهج البحث اللغوى بين التراث وعلم اللغة الحديث*. العراق: دار الشؤون الثقافة العامة.

ضيف، شوقى. ١٩٦٨م. *المدارس النحوية*. الطبعة الثانية. مصر: دارالمعارف.

الفراهيدى، الخليل بن أحمد. ١٩٨٨م. *العين*. تحقيق مهدى مخرومى وإبراهيم سامرائى. بيروت: مؤسسة الأعلمى للمطبوعات.

قدرو، أحمد محمد. ٢٠٠١م. *اللسانيات وآفاق الدرس اللغوى*. الطبعة الأولى. دمشق: دارالفكر.

قدورى الحمد، غانم. ٢٠٠٢م. *المدخل إلى علم أصوات العربية*. بغداد: منشورات المجمع العلمى.

قدورى الحمد، غانم. ١٩٨٦م. *الدراسات الصوتية عند علماء التجويد*. بغداد: مطبعة الخلود.

کانتینیو، جان. ۱۹۶۶م. *دروس فی علم أصوات العربیة*. ترجمة صالح القرمادی. تونس: نشریات مرکز الدراسات والبحوث الاقتصادیة والاجتماعیة.

مختار عمر، أحمد. ۱۹۸۸م. *البحث اللغوی عند العرب*. الطبعة السادسة. القاهرة: عالم الکتب.

مختار عمر، أحمد. ۱۹۷۶م. *دراسة الصوت اللغوی*. الطبعة الأولی. القاهرة: مطابع سجل العرب.

مخزومی، مهدی. ۱۹۸۶م. *الخلیل بن أحمد الفراهیدی، أعماله ومنهجه*. الطبعة الثانیة. بیروت: دار الرائد العربی.

مونین، جورج. ۱۹۷۲م. *تاریخ علم اللغة*. ترجمه بدرالدین القاسم. دمشق: مطبعة جامعة دمشق.

